مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد ٢٢، العدد ٨٦ (ربيع ٢٠١١)، ص ١٤٦

كتب بالعربية

تيار الإصلاح الديني
ومصائره في المجتمعات العربية

إشراف: ماهر الشريف وسلام الكواكبي

دمشق: المعهد الفرنسي للشرق الأوسط – قسم الدراسات العربية، ٢٠٠٣. ٤١٩ صفحة.

يجمع هذا الكتاب بين دفتيه أوراق العمل المقدمة في الندوة التي عقدت في مدينة حلب (سورية) يومي ٣١ أيار/مايو و١ حزيران/يونيو ٢٠٠٢، بمناسبة الذكرى المئوية لرحيل الإمام عبد الرحمن الكواكبي، صاحب "طبائع الاستبداد".

ينقسم الكتاب، الذي قدم له وأشرف عليه الدكتور ماهر الشريف والأستاذ سلام الكواكبي، إلى جزأين:

● الأول بالعربية ويضم: "الثورة الفكرية الكواكبية: مبرراتها ومرتكزاتها" لعلي حمية، و"أبعاد الإصلاح الديني عند الكواكبي" لمحمد جمال طحان، و"مفهوم المتمجد في طبائع الاستبداد" لأحمد البرقاوي، و"التضاد والتركيب في فكر الكواكبي" ليوسف سلامة، و"وجهات نظر في العلمانية المؤمنة" للسيد محمد حسن الأمين، و"إشكالية تأويل القرآن قديماً وحديثاً" لنصر حامد أبو زيد، و"الفصل بين السياسة والشريعة في الخطاب الإسلامي المعاصر: الأصول والوظائف والمصائر" لمحمد جمال باروت، و"النظرية السياسية للتيارات الشيعية الراديكالية في القرن العشرين" لفالح عبد الجبار، و"محمد حسين النائيني (١٢٧٧ – ١٣٥٥هـ/١٨٦٠ – ١٩٣٦م) أول من نظّر للحكم الدستوري تنظيراً فقهياً في الإسلام" للشيخ جعفر المهاجر، و"أسباب فشل خطاب الإصلاح الديني" لأحمد موصلي، و"هل كان هناك إصلاح ديني إسلامي؟!" لمحمد كامل الخطيب، و"من إشكالية التوفيقية إلى شروط النهضة" لأحمد الأمين، و"الشريعة بين القراءات السلفية – التقليدية ومحاولات التجديد" لمحمد شريف الدجاني، و"سدنة هياكل الوهم، بحث في الخطاب الديني للعقل الفقهي المشيخي (محمد رمضان البوطي مثالاً)" لعبد الرزاق عيد، و"من عمرو دياب إلى عمرو خالد: الورع والثراء والشباب المصري" لآصف بيات، و"من غروب الإصلاح الديني إلى تجديد الفكر الإسلامي" لماهر الشريف.

● الجزء الثاني بالفرنسية ويضم: "مصلح والعلم" لسلام الكواكبي، و"إصلاح وهوية: الإصلاحية عبر العصور" لآلان روسيون، و"الأحرار اليمنيون، التيار الإصلاحي

والإخوان المسلمون: مؤشرات أولية للتحليل" لفرانسوا بورغا ومحمد سبيتلي، و"الحوزة أمام امتحان القرن: إصلاح التعليم الديني الشيعي الأعلى من العام ١٩٠٩ إلى أيامنا" لصابرينا ميرفان، و"ما مآلها؟ تفكر في تطور السلفية العراقية من آخر القرن الثامن عشر إلى أواسط القرن العشرين" لإدوارد متينييه، و"وهابية وحداثة: جنيولوجيا الإصلاح الديني في الهند بين العامين ١٨٠٣ و١٩١٤" لمارك غابوريو، و"قراءة القرآن عند محمد عبده ورشيد رضا وتأثيرها في الحركة الإصلاحية" لجان – إيف لوبيتال.

* * *

يشرح ماهر الشريف وسلام الكواكبي، في تقديمهما للكتاب، أن فكرة عقد الندوة انطلقت أولاً من أهمية إحياء مئوية الشيخ المنور، ابن مدينة الشهباء، لما خلّفه مع غيره من رواد النهضة العربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر من تراث عشق للحرية والعدل والإصلاح يغني البحث في أحوال مجتمعاتنا اليوم وفي أحوال الفكر الديني السائد فيها. وانطلقت ثانياً من إحساس بأهمية الحوار بين الباحثين في حقل الدراسات الإسلامية في هذه اللحظة التاريخية الخطرة، على أساس التمييز عند الحديث عن الإصلاح بين الدين والفكر الديني، أي بين الثابت والمتحرك، واستعادة ما شغل الرواد الإصلاحيين من أسئلة فيما يتعلق بسبل النهوض بـ "الأمة"، وصولاً إلى ضرورة التفكر في ملابسات غروب الفكر الإصلاحي الديني ونجاح فكر تقليدي، متعصب ومنغلق، في احتلال بعض الفراغ القائم في الساحة الإسلامية. وهو أمر ساهم في تعزيز النيات الصدامية عند عدد من الدوائر الغربية الباحثة عن عدو جديد بعد انهيار المعسكر الاشتراكي.

وقد ضبط هذان المنطلقان اللذان حددهما الشريف والكواكبي معظم أوراق الندوة المجموعة في الكتاب، فانسابت الأوراق على تنوع موضوعاتها وتفاوت مستويات البحث فيها، تعرض لفكر الكواكبي، أو تناقش التراث الديني مبرزة أهمية التأويل والتجديد بحثاً عن الأجوبة في مواجهة التحديات والمتغيرات، أو تحلل أسباب تراجع الفكر الإصلاحي الديني وسبل إعادة الاعتبار إليه.

على أنني اخترت في هذه المراجعة الاقتصار على ثلاث قضايا أبرزتها الأوراق:

- قضية الاستبداد التي بحث فيها الكواكبي.
- قضية التأويل وإعمال العقل كما أبرزتها كتابات رواد الإصلاح.
- قضية تراجع الفكر الديني الإصلاحي والانقلاب عليه.

(١) في أن الاستبداد

أصل الداء

عرض كتّاب الأوراق بشأن فكر الكواكبي لما قاله الإمام في الاستبداد. فهو، مثل

سواه من رواد الإصلاح، بحث في أسباب التخلف الذي أصاب دول المسلمين ومجتمعاتهم. لكنه، وعلى نحو تميّز به عنهم، ركز في إجابته تركيزاً خاصاً على مسألة الاستبداد. فالاستبداد، بالنسبة إليه، هو الداء الأخطر الذي أصاب الأمة، والذي تأسست عليه عناصر التراجع والتخلف. فهو مولّد الجهل والتعصب والفساد والعنف: "يضغط [الاستبداد] على العقل فيفسده، ويلعب بالدين فيفسده، ويحارب العلم فيفسده، ويغالب المجد فيفسده ويقيم مقامه التمجد" (والتمجد من أبرز صفات المستبد).

والأهم في بحث الإمام في الاستبداد قوله بمقامين منه: الاستبداد السياسي والاستبداد الديني، وتقديره أنهما غالباً ما يلتقيان فيستزيد أحدهما من الآخر. ويتولد من التقائهما تحالف بين الأمراء والحكام من جهة وبين من يسميهم "المدلسين والجهلة المعمّمين" من جهة أُخرى، فيفسد الملك والاجتماع والدين. لذلك، كان الكواكبي يشدد على ارتباط الإصلاح السياسي بالإصلاح الديني ارتباطاً وثيقاً، ويقول إن أهم أسباب تقدم الغرب قيام العقلاء فيه بحركة إصلاح ديني وعودة إلى الإنجيل الأول، أتاحت لهم فيما بعد الانطلاق والسير قدماً على طريق التطور والعلم.

تشير الأوراق المتناولة فكر الكواكبي أيضاً إلى نظرته إلى التغيير. فهو رفض مفهومي الانقلاب والثورة لما يحملانه من مخاطر استبدال استبداد بآخر، أو إيصال جهلة من العامة إلى الحكم لا يفقهون في مراميه وأصوله فيزيدون في الخراب وفي تعميم الفساد وتحقيق الفتنة. وهو بهذا المعنى مع الإصلاح العاقل والمتدرج، ومع الشورى والدستور وتحقيق الحرية السياسية من خلال رفع مستوى الإدراك والوعي عند الإنسان المسلم، الذي لا يتم بغير التعليم والتثقيف.

نتبين من هذه الأسطر القليلة حكمة الكواكبي واتقاد فكره. وعلى الرغم من اغتياله قبل إتمامه العقد الخامس من العمر (ولد سنة ١٨٥٥ ومات مسموماً سنة ١٩٠٢)، فإنه خلّف كتابات ناضجة ما زالت تشي براهنية فكره نتيجة استمرار الاستبداد في "الأمة"، وتكاثر المتمجدين فيها وحاجتها إلى الإصلاح الديني والتغيير السياسي. ولا يقلل من راهنية هذا الفكر ما حملته مواقفه أحياناً من تضاد بين وعيه الديني ونزوعه السلفي إلى اعتبار العصر النبوي (وعصر أبي بكر وعمر) عصراً ذهبياً ونموذجاً لما يمكن أن يكون عليه الحكم في بلاد المسلمين، وبين إعجابه الحداثي بمبادئ الثورة الفرنسية وكتابات مفكريها، وهم الجانحون إلى إبعاد الدين والنبوة عن السياسة وإقامة الدولة العلمانية على أسس الحرية والإخاء والمساواة. فهذا التضاد يصعب أن يزول من فكر أي متدين، والمهم لتجاوزه إحداث القناعة بأن ما كان سيظل نموذجاً غير قابل للتكرار، وأن الاستيحاء منه لتكييف الحياة إزاء متطلباتها المستجدة، هو سبيل الاستمرار.

(٢) ما تراجع قوله في التأويل والتسامح... وفي العلمانية

يبحث عدد من أوراق الندوة في المكانة التي احتلها مبدأ التأويل في الأدبيات الإسلامية. ويقدم نصر حامد أبو زيد مطالعة تتناول إشكالية التأويل عند المسلمين قديماً وحديثاً.

ينطلق أبو زيد، بعد إشارته إلى ورود عبارة "التأويل" أكثر من عشر مرات في القرآن في مقابل ورود عبارة "التفسير" مرة واحدة، من الاستشهاد ببعض ما قاله قدماء مثل علي بن أبي طالب (قوله لابن العباس محاجج الخوارج "لا تحاججهم بالقرآن، فإن القرآن حمال أوجه، حاججهم بالسنة"، واعتباره أن القرآن "بين دفتي المصحف لا ينطق وإنما يتكلم به الرجال")، ليظهر أن التجاذب في التعامل مع النص القرآني بدأ في وقت مبكر من التاريخ الإسلامي، وأن التأويل كان شائعاً، وأنه راح يتطور ويتغذى من علم الكلام والمنطق والفلسفة إلى أن صار مع المعتزلة مذهباً فكرياً يعملونه في ردودهم على أهل المذاهب الأُخرى. وقد اعتمد المعتزلة على آيات قرآنية مثل "منه آيات مُحْكَمات هن أُم الكتاب وأُخَر متشابهات"، أي أُخر لا تؤخذ بحرفيتها بل بتأويلها (كتأويل العقل لمسألة "استواء الله على العرش").

ويشير أبو زيد إلى أن التحايل على الحق في التأويل جاء مع المتأخرين بعد القرنين الرابع والخامس للهجرة، حين شاع الحديث عن "الرأي المقبول" و"الرأي المذموم" في مجال التأويل، فاعتبر كل مخالف للجماعة على رأي مذموم. ثم جاء ابن تيمية وتلميذه ابن القيّم ليسلطا السيف على منطق التأويل، ويحملا على "التفاسير الضالة والتأويلات المنحرفة" التي لا بد من وقفها درءاً للخطر المتهدد الدين الحنيف.

ويتناول أبو زيد، في معالجته لإشكالية التأويل في العصر الحديث، فكر محمد عبده واشتغاله على طريقتي السلف والخلف، وانقسام مريديه إلى تيارين لا يزالان يشكلان قطبي الصراع على الساحة الإسلامية: طريقة السلف، ومنها نهل رشيد رضا ومن بعده حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمين؛ وطريقة الخلف، ومنها نهل علي عبد الرازق وطه حسين وأمين الخولي ومحمد أحمد خلف الله. ويورد حججاً بليغة بشأن ما قاله عبده في التأويل تأكيداً لعدم جواز تعارض العقل والقرآن. كما يعرض لما نادى به عبده، ومن بعده طه حسين، بشأن القصص الواردة في القرآن، من ضرورة أخذ ما فيها من عبر ومن مخاطبة لعقل العرب في مرحلة تاريخية معينة، من دون البحث في مدى دقة ورودها تاريخياً، إذ إن القرآن ليس كتاب بحث في التاريخ.

على أن طريقة السلف أقفلت الباب، أو تكاد، أمام أتباع طريقة الخلف. وعانى كل

من اعتمد التأويل محنته، من علي عبد الرازق وطه حسين، إلى أمين الخولي ومحمد أحمد خلف الله، وصولاً إلى أبي زيد نفسه. وهذه المحن توحي بأن لا مجال للتسامح ولاحترام الاختلاف والحرية في التفكير الإسلامي، كما يفهمه أكثر الحديثين من أهله.

لكن عدداً من الاستشهادات القرآنية، الواردة في ورقة محمد شريف الفرجاني، يظهر عكس هذا الفهم المحدود. فالكاتب، في بحثه في محاولات التجديد، يركز على آيات تؤكد مبدأ التسامح وتشير إلى إمكان قيام حكم مدني في الإسلام لا يتنافى والقرآن الذي شدد على السلطة التبشيرية للرسول، لا على السلطة السياسية له كحاكم: "إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل"، و"فذكِّر إنما أنت مذكِّر لست عليهم بمسيطر"، و"ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء"... فما يمكن فهمه في هذه الآيات هو تسامح الإسلام مع من "لم يهتد"، تأسيساً أيضاً على أن "لا إكراه في الدين"، "ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر" من ناحية، وإفساحاً في المجال لحكم مستقل عن الدعوى الدينية وعن الهداية الإسلامية من ناحية أُخرى. وهذا ما كان علي عبد الرازق قد حاول قوله في "الإسلام وأصول الحكم"، وهو بالتحديد ما يفتح الباب أمام موقف من الدعوة إلى الفصل بين البحث في الغيب والبحث في إدارة شؤون الدنيا انطلاقاً من معرفة الإنسان ومن عقله.

والسيد محمد حسن الأمين، في مداخلته المختصرة والمكثفة، يقدم رأياً في ذلك، أحوج ما تكون إليه المجتمعات الإسلامية اليوم. فهو يعتبر أن العلمانية (المشتقة لفظاً من العالم لا من العلم)، بما هي احترام للعقل وللفكر الإنساني، لا تتعارض والدين. فالعالم هو مصدر للمعرفة العلمية، والوحي الإلهي مصدر للمعرفة الغيبية لا ينافس العلم أو يصادره. والمعرفة وكدح الإنسان هما المصدر الوحيد لفهم عالم الشهود، أي التاريخ والإنسان والمجتمع والكون والحياة. ويرى السيد الأمين أن الإسلام كدين رمى إلى تحرير الإنسان من الاستلاب، وإلى التشارك في صنع الحقيقة الإنسانية، وبالتالي لا يمكن أن يكون عقبة أمام العقل وحاجزاً أمام حرية البحث ووسيلة لتكفير الباحثين.

وبذلك، تصبح العلمانية المؤمنة، المحترمة الدين والإنسان، "مذهباً" إصلاحياً يمكن التأسيس عليه لإعادة الاعتبار إلى التراث الثقافي النهضوي.

(٣) في أسباب الغروب الإصلاحي

يقدم ماهر الشريف مطالعة في تحليل أسباب غروب الخطاب الإصلاحي وعدم تجديد الفكر الديني منذ بدايات القرن المنصرم. ويعرض مرحلة بدايات النهضة، من تاريخ صدور كتاب رفاعة رافع الطهطاوي "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" سنة

١٨٣٤ إلى لحظة إنشاء بطرس البستاني سنة ١٨٦٣ أول مدرسة علمانية في جبل لبنان، إلى تاريخ ظهور كتاب خير الدين التونسي "أقوام الممالك في معرفة أحوال المسالك" خلال الحراك الثقافي لخريجي جامع الزيتونة في تونس في ستينات القرن التاسع عشر، وما رافق ذلك من ترجمات وكتابات وتأثر بالمنورين الأوروبيين فولتير وروسو ومونتسكيو، وبالإصلاحيين الأتراك، وتشكل جمعية "العروة الوثقى". ويركز الشريف على الدور المهم الذي اضطلع به السيد جمال الدين الأفغاني (١٨٣٩ – ١٨٩٧) في تعزيز كل هذه الإرهاصات والاستفادة منها لتطوير فكر إصلاحي ديني بنى عليه فيما بعد صديق الأفغاني وتلميذه محمد عبده (١٨٤٩ – ١٩٠٥). فالأفغاني قال بالنهوض بالمجتمعات الإسلامية من خلال حركة تنويرية يكون الإسلام العقلاني المنفتح على العلم رافعتها. ودعا إلى اللجوء إلى التأويل كلما تعارض الدين الإسلامي مع الحقائق العلمية. وقد أكمل عبده هذا النهج، فكتب عن حرية الفرد وحرية التفكير وضرورة فهم الإسلام على أنه دين العقل القادر على التأسيس للمجتمع الحديث، مؤكداً أن الدين لا يحتاج إلى السلطة السياسية، وإنما هي التي عمدت إلى التلطي به لتبرير جورها وفسادها فأصابته بالأذية وألصقت به الشوائب الواجب إزالتها. وحاجج عبده ضد التكفير معتبراً الحرية الفردية أساساً من أسس الإصلاح. أمّا عبد الرحمن الكواكبي (١٨٥٥ – ١٩٠٢)، فركز كما ذكرنا على الاستبداد معتبراً الحرية السياسية شرط الإصلاح الواجب قيادته من حكماء "لا يبالون بغوغاء العلماء الغفل الأغبياء والرؤساء القساة الجهلاء، يجددون النظر في الدين فيعيدون النواقص المعطلة ويهذبونه من الزوائد الباطلة مما يطرأ عادة على كل دين يتقادم عهده، فيحتاج إلى مجددين."

ثم تابع علي عبد الرازق (١٨٨٨ – ١٩٦٦) في كتابه "الإسلام وأصول الحكم"، هذا النحو الإصلاحي، واشتغل على مسألة فصل الولاية المادية للحاكم عن الدور التبشيري للرسول (فكيف بالدعاة وأئمته)، بينما كتب قاسم أمين والطاهر حداد عن تحرر المرأة، ونشط عشرات المثقفين الشوام والتونسيين كتابة وتجديداً لغوياً وفكرياً، فبدا أن تحويل الفكر النهضوي إلى حالة إصلاحية دينية وثقافية بات مسألة وقت وتراكم جهود وتجارب.

غير أن انقلاب صاحب مجلة "المنار"، الإمام محمد رشيد رضا (١٨٦٥ – ١٩٣٥)، على فكر أستاذه محمد عبده في إثر وفاته، وتحوله من داعية تجديد وعلم إلى داعية جهاد ضد "المارقين" الهادفين إلى هدم الدين وفصله عن الدولة وفرض تهتك النساء، وهجومه العنيف على من سمّاهم المتفرنجين والملاحدة، من رواد تلك الحقبة، ولا سيما علي عبد الرازق وطه حسين وقاسم أمين، كل هذا شكل نقطة تحول في المسار الإصلاحي. فقد أسست حملات رضا على دعاة الإصلاح أرضية تموضع فيها جميع

المحافظين والتقليديين ورافضي التطور والتجديد. كما شكل قاعدة استند إليها حسن البنا (١٩٠٦ – ١٩٤٩) في دعوته إلى نبذ الحضارة الغربية ومؤسساتها وإصلاح الذات الإسلامية وتنقيتها من الشوائب عودة إلى الإسلام الأول الكفيل وحده بالنهوض بالأمة. ثم كان لدعوة سيد قطب (١٩٠٦ – ١٩٦٦، المنضم إلى الإخوان المسلمين بعد وفاة البنا) إلى أخذ العلوم البحتة من الغرب ونبذ علومه الاجتماعية والإنسانية والفلسفية، ولاعتباره أن الحقيقة ملك الطليعة المؤمنة التي تعيش بمنهج الله، ولتقسيمه المجتمع إلى إسلام وجاهلية، أن أطلقت العنان لحملة مضادة عنيفة في وجه المساعي الإصلاحية، وأسست للإسلام السياسي السلفي في قراءته، التكفيري في مسلكه.

وقد رافق غروب الإصلاح الديني وسيطرة الإسلام السلفي صعود لتيارات سياسية علمانية تدعو إلى البحث في إصلاح المجتمع والسياسة اعتماداً على الاشتراكية أو القومية أو الليبرالية وغيرها من التيارات المؤثرة في الغرب. وقد ابتعدت هذه التيارات عن تراث النهضة، وأهملت الإصلاح الثقافي والديني في دعاويها الإصلاحية، ففوتت فرصة تأمين تواصل تاريخي واستمرارية نهضوية.

ثم جاء مبدأ إعلاء حرية الوطن على حرية المواطن والتحول إلى العقل الانقلابي في الحياة السياسية والحكم السلطوي ليقضي على أي إمكان لإعادة الاعتبار إلى الإصلاح وإلى رواده الفكريين.

وربما يجب أن نضيف أن الصدام بين الأنظمة المستبدة باسم القومية أو الاشتراكية والعلمانية وبين تيار الإخوان المسلمين المنغلق، كان له تأثير كبير في المسار الانحداري سياسياً، وفي التشدد إسلامياً واعتماد العنف وسيلة في الصراع.

المهم اليوم، وهو دعوة الندوة، حملتها أوراق الكتاب العربية بأكثرها، العودة إلى استكمال تراث الأفغاني وعبده والكواكبي وحسن النائيني (الذي قدم الشيخ جعفر المهاجر بحثاً في فكره المستنير وفقهه الإصلاحي) على الرغم من صعوبتها. وسيتطلب ذلك حتماً مساجلات هادئة كتلك التي يقدمها نصر حامد أبو زيد والسيد محمد حسن الأمين، أو ساخنة لا تخلو من قسوة وطرفة كمثل التي يقدمها عبد الرزاق عيد في نقده لمن يسميهم "سدنة هياكل الوهم".

والمهم أيضاً التوقف عند أسباب الغروب الإصلاحي، على نحو ما فعل ماهر الشريف، للانطلاق من جديد في مرحلة صار الإصلاح (السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي) شرطاً لا غنى عنه لمواجهة التحديات الداخلية والخارجية المتعاظمة والمتراكمة منذ عصر النهضة المجهضة حتى اليوم.

* * *

بقدر ما يترك هذا الكتاب أثراً طيباً في القارئ لشعوره بعيد إتمامه بالمتعة

الفكرية والفائدة الكبيرة التي جناها من قراءته، بقدر ما يصيبه بالكدر لتيقنه أكثر فأكثر من حجم التراجع الذي أصاب "الأمة". فطرح الأسئلة نفسها اليوم عن أسباب تخلفنا بعد ما يزيد على قرن ونصف قرن من طرحها أول مرة، ومن دون الشروع في تحويل بعض الأجوبة إلى واقع، يؤشر إلى هول العجز وحجم التردي والمراوحة الذي تعيشه مجتمعاتنا. فقد ضاعت عقود من أعمارنا أو تكاد، وستضيع قرون إن لم نعد العمل على إطلاق نهضة جديدة.

زياد ماجد

كاتب لبناني

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar/mdf